# أنوار جورج طرابيشي: العقل في حدود الترجمة

**الناصر عمارة**

## ملخّص تنفيذي

يقارب هذا البحث الوظيفة التنويرية للترجمة في فكر جورج طرابيشي بوصفها مخزونًا من الأدوات النقدية الضرورية لإصلاح الأعطال المعرفية والنفسية، التي أصابت العقل العربي لحظة اصطدامه بالعوائق التاريخية التي خلّفتها حداثة غربية متسارعة، وكذا ارتطامه بهزائم وانكسارات نفسية عميقة؛ حيث أدرك طرابيشي أن العقل العربي لا يمكن له أن يُنجز مشروعه العقلاني إلاّ إذا بدأ بالخلاص النفسي الداخلي من (عصاب جماعي)، أي إلّا إذا تحرّر من قوّة غير عقلانية تسحبه كرْهًا إلى عالم ذي عتمة وتمنعه من التفكير بوصفه طريقةً في الوجود لا تستند إلا إلى ذاتٍ واضحة ومكشوفة لنفسها، وبهذا المعنى يكون للترجمة دورٌ في وضوح العقل الذي هو مطلب معرفي كوني.

عندما ننظرُ في ترجمات طرابيشي لفرويد –نموذَجه العلاجي والتنويري– فإننا نكتشف الأبعاد المعرفية والنفسية التي تتّخذها هذه الترجمات وانعكاساتها على تصوّرات طرابيشي للعقلانية العربية وآفاقها. أمّا عندما ننظر بعين نقدية إلى تلك الترجمات فإننا نكتشف الحدود الإبستمولوجية التي ينتهي إليها العقل العربي عندما ينخرط لاشعوريًا في لغة الترجمة وتوجيهاتها الدلالية فيتلوّن بلوْن الآثار الثقافية غير القابلة للمحو التي تنطبع على مادّته الخطابية.

**الكلمات المفتاحية**: الترجمة؛ التنوير؛ الخلاص؛ العقلانية؛ النقد؛ لوغوس؛ التحليل النفسي.

## مقدمة

لقد فتحَ الفكرُ العربي المعاصر ورشاتٍ معرفية للتفكير والنقد وُصفت بـ(المشاريع الفكرية) التي استمدّتْ أدواتها التحليلية والبحثية من العلوم الإنسانية والاجتماعية الغربية (الفلسفة، علم النفس، علم الاجتماع)، حيث تحوّلتْ أفكار نيتشه، وفرويد، وهوسرل، وفيبر، وهيدغر وغيرهم، من كونها نظريات معرفية خالصة إلى ثقافة مهيمنة في أوروبا والعالم، وهو ما يعني إبستمولوجيًا أن العقل قد اتّخذَ وضعًا جديدًا، وأنّ بنياته المنطقية والنفسية قد تغيّرت كُليًّا. وفرضَ هذا التحوّل الإبستمولوجي على الفكر العربي المعاصر ضرورة التخلّي عن الأيديولوجيات ومصادر الزيف المختلفة فيها والبدء في العمل بالوسائل المعرفية (الموضوعية) (الحفر، التقويض، التفكيك، التحليل) مِن منطلق قاعدةٍ أساسية هي أنّ الإنسان العربي ليس ظاهرة معزولة ومخصوصة، بل هو خاضع للشروط الكونية نفسها التي تتجلّى في الطبيعة البشرية، وينطبق عليه ما ينطبق على غيره من قواعد للجسد والفكر والنفس.

مثّلَ النقدُ، بوصفه ثمرة مباشرة لتطوّر العقل الغربي، في النصف الثاني من القرن العشرين، مَطلبًا عاجلًا للفكر العربي؛ لأنه ظهرَ أن الذات العربية قد تضخّمت مَرَضيًا في مرآة التراث، وبَدَتْ عليها آثار التشوّهات الحضارية بعد مخاضٍ عسير لسؤال النهضة الذي تركَه شكيب أرسلان مفتوحًا (لماذا تأخر المسلمون وتقدّم غيرهم؟)، ثمّ أُعيد شحنه نفسيًا بعد هزيمة 67 بما يمكن صياغته بـ(لماذا هُزِم العرب وانتصر غيرهم؟)، فتكونت بذلك (أزمة عربية) مزدوجة: أزمة حداثية وأخرى نفسية؛ وعليه فقد كَشفَ درسُ النقد في الفكر العربي المعاصر عن أنّ العرب قد دخلوا أزمنة جديدة بأدوات قديمة وبذاتٍ يَسكُنها اللامعقول، ما نتج عنه ارتباكٌ في الوعي بالزمن، فقد أدّت الأزمة –الهزيمة من جهة، وصدمةُ الحداثة من جهة أخرى إلى ارتجاجٍ في العقل العربي، ما أفقده الوعي بذاته، فبرزتْ أعراضُ ذلك الارتجاج في أسئلة التيه؛ سؤال الهوية: مَنْ نحن؟ وسؤال التاريخ: في أيِّ زمن نعيش؟ فحاول مفكرون عرب (الجابري إبستمولوجيًا وأركون أنثروبولوجيًا ونصر حامد أبو زيد هرمينوطيقيًا وطه عبد الرحمن منطقيًا وحسن حنفي فينومينولوجيًا)، أن يدفعوا بالنظريات النقدية إلى عمق التراث والواقع والذات بغرض ترميم تصدّعات العقل العربي وإعادة إنتاج دافعيته الذاتية في التفكير والعمل.

في هذا الزخم النقدي للفكر العربي المعاصر اختارَ المفكرُ جورج طرابيشي أن يمدِّد العقلَ العربي على سرير التحليل النفسي، ناظرًا إلى الندوب والكدمات التي خلّفتها النكسة الحزيرانية على وجه الكتابة العربية الفكرية والأدبية، ومحلّلًا آثارها النفسية التي حفرتْ عميقًا في الذات والوعي فولّدَتْ حالة (عصاب جماعي)؛ وكان دليله إلى القراءة (العلاجية) لهذه الحالة هو منهج التحليل النفسي و(سيغموند فرويد) بالخصوص عبر ترجمة أغلب أعماله، وقد اتّخذت هذه الترجمات الكثيفة وظيفتين: إحداهما وظيفة تقنية من خلال توجيه طرابيشي نحو فهم التحليل النفسي ثم استثماره في قراءة الفكر العربي المعاصر أو الرواية العربية، أمّا الأخرى فهي وظيفة إبستمولوجية من خلال إعادة بناء المعطى العقلي لدى طرابيشي في حدود الترجمة، أي ضمن العالم الذي يتمّ تحديده بواسطة لغة النصوص المترجَمة والمادّة المعرفية التي تَشكّلَ منها؛ لأنه ومنذ فيتغنشتاين Wit-

tgenstein فإن ((حدود لغتي هي حدود عالمي))[1]، ولأنّ لكلّ تنويرٍ (لُوغوسه)، فإن المشروع التنويري لدى طرابيشي مبنيّ على خطاب عقلاني يستمدّ أدواته المعرفية وجهازه المفهومي من التحليل النفسي ومبادئه وتصوّراته التي وضعها فرويد وطوّرها يونغ وغيره؛ لأن الهدف من مشروعه هو كشفُ وتعرية الطبقات الرسوبية التي تراكمت فوق (الذات) العربية فغطّتها بالأوهام، وجعلتْ منظورها إلى العالم زائفًا وفعلها في الواقع مشوّهًا. فما طبيعة العقلانية لدى طرابيشي في ضوء ترجماته مؤلفات فرويد؟ وما الدور التنويري الذي لعبته هذه الترجمات في مشروعه لإصلاح العقل العربي؟

## الترجمة والذات: براديغم الخلاص من الأب

ليست الترجمة إطارًا تقنيًا يجمعُ المترجمَ بنصٍّ في لغةٍ أجنبية بل هي حياة تامّة معيشة في اللحظات التي يجتهد فيها المترجمُ ليفهم المعاني وسياقاتها ((لأننا نفهم لغةً ما عندما نعيش فيها))[2] أي عندما نخوض تجربة حياتها الداخلية، ونضعُ كينونتنا في البؤر الأنطولوجية التي يتدفّق منها المعنى، ونسيرُ في الاتجاه الذي تسلكه لغةُ النص المترجَم نحو الدلالات التي هي عالمٌ يُعيد المترجمُ فتحَه بلغته الخاصة، لأن ((هدف الترجمة من فتح علاقة بالآخر على مستوى الكتابة هو إخصاب الأنا الخاص من خلال وساطة الغريب الأجنبي))[3]، لكن فعلَ المحافظة على المعاني الأصلية للنص الأجنبي وتوجيه الوعي بكُليّته نحو ذلك يؤدّيان إلى القابلية للإذعان إلى صوت اللغة الأجنبية الذي يظلّ صداه يتردّد كلّما حاول المترجم الاشتغال بالأفكار أو نقدها، إذ إنَّ ((نصًّا اصطناعيًا كالترجمة، لا يُشكّل بالتأكيد، حالةً عادية لعلاقتنا مع لغة أجنبية، بل على العكس من ذلك، فإن التبعية للترجمة هي نوع من الخضوع للوصاية))[4]، وليست هذه الوصاية آنيةً مرتبطة بموضوع النص المترجَم ولا بالأثر الدلالي الذي يترتب على نقل الحمولة النفسية من اللغة الأجنبية إلى لغة المترجم، وإنّما هي مرتبطة بالقوالب النظرية المسبقة التي تتحكّم في صناعة نصوص جديدة، وتصطبغ بالأداء الإبستمولوجي للّغة الأجنبية الناتج عن الفعل المزدوج: القراءة والترجمة.

في هذا السياق يمكن النظر إلى علاقة جورج طرابيشي باللغة الأجنبية (الفرنسية) على أنها ليست علاقة مترجم بنص أجنبي فقط بل هي علاقة مشحونة نفسيًا ومدفوعة بهواجس الفكر في العقل العربي انطلاقًا من الاختلاف بين اللغات الذي يعكس الفرق في معقولات الواقع والآفاق الخطابية التي يُنجِز فكرٌ ما نفسه فيها، إذ ((ليست اللغات مختلفة فقط في طريقتها في تقطيع الواقع بل هي مختلفة كذلك في طريقة إعادة تركيبه على

(1) Ludwig Wittgenstein, Tractatus Logico-Philosophiques, trad. Gilles-Gaston Granger, (Paris: Gallimard, 1993), 5.6.

(2) Hans-Georges Gadamer, Vérité et méthode: Les grandes lignes d'une philosophie herméneutique, trad. Pierre Fruchon, Jean Grandin et Gilbert Merlio, (Paris: Seuil, 1996), p 406.

(3) Antoine Berman, L'épreuve de l'étranger, culture et traduction dans l'Allemagne romantique, (Paris: Gallimard, 1984), p 16.

(4) Hans-Georges Gadamer, Vérité et méthode, p 406.

مستوى الخطاب))[5]، ولذلك لجأ طرابيشي إلى فرويد عبر ترجمة مؤلفاته لإنجاز خطاب تنويري حيث نشأت بذلك علاقةٌ عبّر عنها بقوله ((أستطيع أن أقول أني كنتُ في علاقة حميمية مع فرويد خلال هذه الفترة الطويلة من حياتي. حسب وجهة نظري، كان يجب أن أتقمّص شخصية فرويد لأتمكّن من ترجمته لأن فرويد غير قابل للترجمة، وهو الشرط الأساسي للتمكّن من ترجمته))[6]، فالمدخل إلى ترجمة فرويد كان نفسيًا أكثر منه معرفيًا ولذلك ينخرط طرابيشي بفاعلية كبيرة في مشروع ترجمة فرويد وتفعيل مقولاته التحليلية في الكتابة العربية، وقرّر منذ البداية أنّ ((لغة فرويد تُفهَم من خلال الحالات التي نعيشها، يجب أن نعيش التحليل النفسي لكي ندخل إليه، إنها ليست مسألة معرفة))[7] وبهذا المعنى تبلورتْ ترجمته لفرويد داخل تجربةٍ عاشها ونقلَ إليها عالمه الخاص ثمّ نقلَ إليها همومه الفكرية وهواجسه العقلانية، فقد شكّلت له هذه الترجمات نورًا هاديًا إلى عقلانية متحرّرة من مكابحها النفسية.

إن الترجمة عمومًا، وترجمة فرويد بالخصوص، ليست محض حرفة احترفها طرابيشي بل هي (براديغم) التفكير العقلاني الذي يتخلّص بواسطته من اللامعقول والمَرَضي الساكنان في اللغة كما في الواقع، ولأن ((كلّ ترجمة تحمل في ذاتها صداها المخلِّص))[8]، فقد نظرَ طرابيشي إلى استحضار فرويد في تجربة التفكير باللغة العربية بوصفه طريقًا إلى الخلاص النفسي والمعرفي بل عدّه أبًا، ولذلك (اعترف) قائلًا: ((لقد جعلتني الحرب الأهلية في لبنان أكتشف فرويد، لقد حماني فرويد من الانغلاق الكلّي ومن الجنون، لقد ساعدني على البقاء حيًّا فكريًا ونفسيًا، لقد كان أبًا حاميًا ضدّ هذه البربرية التدميرية))[9]، وبذلك فقد دخل فرويد بواسطة الترجمة إلى القوّة التحرّرية للعقل لدى طرابيشي، ومنه يمكن عدّ الترجمة في هذه الحالة وسيطًا علاجيًا لأن نقْلَ نصوص فرويد إلى العربية يعني بالنسبة إليه تحويله إلى مفاتيح مناسبة لفهم العُقد والمكبوتات التي تُعطّل العقل العربي وتمنعه من التفكير بحريّة، إذ ((يؤكّد ميدان العلاج بالتحليل النفسي في علم النفس على قوّة التفكير التحرّرية (..) فبعد أن تُكتشَف عملية القمع، تتجرّدُ الإكراهاتُ الخاطئة من قوّتها))[10]، وعليه يكون طرابيشي قد اتّخذ من ترجمة مؤلفات فرويد برنامجًا علاجيًا بالمعنى النفسي وبالمعنى الإبستمولوجي، أي للتعافي من عقدة الأب[11]*، وكذا التعافي من انغلاق الأيديولوجيا أو الأيديولوجيا المترجَمة، ففي سياق تحليله لسؤال: مَن قتل

(5) Paul Ricœur, Sur la traduction, (Paris: Bayard, 2004), p 54.

(6) Georges Tarabichi, Rencontre avec un traducteur en Arabe, Georges Tarabichi, avec: Zoueïn Josette, Thierry de Rochegonde, in: Revue (Che Vuoi?), éd. (L'Harmattan, Paris, 2004, N° 21), p 98.

(7) Ibid. p98.

(8) Paul Ricœur, Sur la traduction, p18.

(9) Georges Tarabichi, Rencontre avec un traducteur en Arabe, Georges Tarabichi, p97.

(10) Hans-Georges Gadamer, L'art de comprendre, écrits1: herméneutique et tradition philosophique, trad. Marianna Simon, (Paris: Aubier-Montaigne, 1982), p133.

(11) * لقد تحدّث طرابيشي عن بداية هذا المسار العلاجي في مقال بعنوان (ست محطّات من حياتي) حيث يقول: ((وقصتي مع فرويد بدأت بواقعة لا

الترجمة في الإسلام؟ أشار إلى أنه ((لئن يكن المأمون قد أدخل للمرّة الأولى، عاملًا إيديولوجيًا مباشرًا في تحفيز عملية الترجمة، فهذا لا يعني أن هذه العملية قد تمخّضت عن إيديولوجيا مترجَمة، كما هو واقع الحال في حركة الترجمة المعاصرة في عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين))[12]، وهو ما يعني أن الترجمة ستكون بالنسبة إلى طرابيشي أداة اشتغال على الحَفر في العقل العربي لتخليصه من محتوى اللاوعي الذي يسكنه بوصفه تاريخًا منسيًا بفعل القهر والقمع الذي تمارسه رمزية الأب في المجتمع أي كلّ سلطة لا تخضع للعقل وتنفلت من النفس لتقبع في قاعٍ أنطولوجي مظلم يحجب كلّ رؤية واضحة إلى الحاضر والمستقبل.

لم يجعل طرابيشي من ترجمة فرويد مفتاحًا للذات بما تنقله من معرفة عن النفس (عبر التحليل النفسي) فقط، بل جعلَ منها مفتاحًا للحضارة والحداثة، إذ ((ليس لأيِّ ثقافة معاصرة أن تفتح لنفسها قفل الحداثة وهي تفتقد مفتاحًا أساسيًا من مفاتيحه كما يتمثّل بالتحليل النفسي، الفرويدي وغير الفرويدي على حدّ سواء))[13]، فالترجمة مشروع تنويري لأنه يدفع إلى التفكير بواسطة أسس عقلانية تكوّنتْ في تاريخ من النقد والتجاوز (نقد العقل المحض والعملي لكانط مثلًا، وتجاوز الميتافيزيقا لدى هيدغر ودريدا) بما شكّلَ حداثة قائمة على العلم لا على الأيديولوجيا، فهي، أي الترجمة، تبدأ بـ ((الاصطدام ببنية المركزية الإثنية لكلّ ثقافة، أو هذا النوع من النرجسية التي تجعل من كلّ مجتمع يريد أن يكون كُلًّا خالصًا غير مختلط))[14]، وهي النرجسية التي تمنع الفهم الحقيقي للذات والوعي بها في تاريخ متحرّك وتُقفل الباب المعرفي أمام العقل الذي يتّخذ من الأيديولوجيا سياجًا ضدّ كلّ نور خارجي لأنه في الظلمة فقط يمكن السيطرة على العقول بواسطة السياسة والفهم المغلوط للدين والجنس. ولذلك قدّم طرابيشي تفسيرًا ومبرّرًا لترجمتَه لـ ((آخر ثلاث كتب كتبها فرويد قبل أن يقضي نحبه، وهي (مستقبل وهم) (1927)، و(قلق في الحضارة) (1929) و(موسى والتوحيد) (1939)، ظلّت أسيرة الظلّ لا تجد في أوساط الفكر الأكاديمي والجامعي العربي من يجرؤ على الإقدام على ترجمتها ونشرها، (..) وليس عسيرًا أن ندرك سرّ ذلك الإحجام إذا أدركنا أن الكتب الثلاثة المشار إليها اتّخذت من الدين وصلته بالحضارة ومصائره في المستقبل موضوعًا مركزيًا لها))[15]، فالحاجز

تخلو من طرافة. فبعد أن تزوجتُ وصار عندي بنتان كنتُ كلما جلستُ إلى المائدة لآكل الطعام، أمسك برغيف الخبز، فلا أجد نفسي إلا وأنا أقطّعه من أطرافه لاشعوريًا. ولكن كلّ مرّة أنسى نفسي وأعود إلى تمزيق الرغيف بدون قصد ولا انتباه مني. وهكذا إلى أن صادف ذات مرّة أن قرأت مقالًا -لا أعتقد أنه كان لفرويد وإنما لأحد تلاميذه- يحكي عن هذه الظاهرة النفسية ويعتبرها عرَضًا عصابيًا بصفتها فعل تمزيق لا إرادي ولا شعوري للأب. وأنا عندما قرأت ذلك المقال انفتحت على التحليل النفسي، وعكفت على قراءة فرويد ثم شرعتُ أترجم له، ووجدتني أتصالح مع أبي -وكانت قد مضت سنوات على وفاته- وأصفّي حسابي مع نفسي تجاه أبي وأستعيد نسبة كبيرة من الهدوء النفسي وأنظر إلى الحياة نظرة جديدة إلى حدّ ما)) يُنظر: جورج طرابيشي، ست محطات في حياتي، في موقع (أثير) العماني بتاريخ 23/ 2/ 2015.

(12) جورج طرابيشي، هرطقات عن الديمقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية، ط1، (بيروت: دار الساقي، 2006)، ص 44.

(13) سيغموند فرويد، محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي، جورج طرابيشي (مترجمًا)، ج1، ط1، (دبي، الإمارات العربية المتحدة: دار مدارك للنشر، 2014)، ص 8.

(14) Antoine Berman, L'épreuve de l'étranger, culture et traduction dans l'Allemagne romantique, p16.

(15) سيغموند فرويد، مستقبل وهم، جورج طرابيشي (مترجمًا)، ط4، (بيروت: دار الطليعة، 1998)، ص 61.

الذي كان يمنع معالجة موضوع الدين في العالم العربي، والتفكير فيه، وطرحه للمناقشة والتداول الثقافي ليس الموضوع في حدّ ذاته، بل غياب النصوص الدافعة إلى ذلك في اللغة العربية، ومن ثمّ اشتغلتْ ترجمةُ طرابيشي لهذه الكتب على تحرير موضوع الدين من الإكراهات اللاعقلانية والسلطوية في المجتمع العربي.

## ترجمة العقل وعقل الترجمة

لقد حدّد طرابيشي بوضوح ما يعنيه بالعقلانية ليجعل ذلك إطارًا عامًّا يتحرّك داخله بالتحليل والنقد، حيث قال ((لا نعني بالعقلانية شيئًا آخر سوى هذا المبدأ البسيط والثوري معًا: إنه لا يجوز أن تعلو فوق سلطة العقل أيّة سلطة أخرى))[16]، وكان هذا درس الترجمة الأوّل والمستفاد من ترجمة نصوص فرويد بالخصوص لأن ((منطلق فرويد في تناوله لمشكلة الدين كان المبدأ العقلاني الكبير التالي: ليس ثمّة سلطة تعلو فوق سلطة العقل، ولا حجة تسمو على حجته))[17]، ويترتّب على هذا المبدأ تفكيك السلطات كلّها التي تحاول الالتفاف على العقل من أجل تجاوزه والتَعْمية عليه في موضوعات مختلفة تخصّ الإنسان في أبعاده الاجتماعية والأخلاقية والنفسية، ولكن كان على طرابيشي استخراج هذه السلطات واستدراجها إلى حقل اللغة والوعي كما يفعل المحلّل النفسي بعد أن وضعَ للعقل قانونًا من خلاله يمكن النظر إلى تلك السلطات نظرة نقدية ((فقانون العقل هو التقدّم))[18]، ولذلك فكلّ تراجعٍ يُعد مرضًا للعقل وعلى رأس السلطات المدمّرة للعقل سلطة الأب بوصفها سلطة تمارس الوصاية على الذات فتُضعف طاقتها النفسية وتحدّ من حريّتها في التفكير، وها هنا نميّز لدى طرابيشي نوعين من الأب:

أ- الأب الشخصي: وهي الصورة الرمزية للأب الخاص بطرابيشي نفسه الذي يتمّ تجاوزه بفعل الترجمة، فقد تجاوز طرابيشي ماركس الأب وسارتر الأب إلى فرويد الأب ثمّ إلى ما بعد فرويد، وصرّح في حواره ((في البداية ترجمتُ مؤلفات ماركس ولينين وبالخصوص المؤلفات الممنوعة من طرف ستالين ومؤلفات تروتسكي (..) ثمّ أصبح سارتر بسرعة نموذج الأنتلجنسيا العربية واستطعتُ ترجمة عدد من مؤلفاته ومؤلفات سيمون دي بوفوار وأوّل كتاب لي كان سارتر والماركسية، لقد حدثت حرب الأيام الستة، جرحٌ نرجسي رهيب للعالم العربي، فبعد الموقف الذي اتّخذه سارتر لصالح إسرائيل، في بضعة أيام انهارت هالته في العالم العربي، لقد كان ذلك مثل (سقوط الأب) كأبٍ رمزي))[19]، فكانت ترجمة طرابيشي للفكر الغربي مُرافقةً لصناعة سلطة الأب في الثقافة العربية، وتتغيّر توجّهاتها عند كلّ سقوطٍ للأب.

ليست الترجمة عنده إذن مسألةً تقنية ولكنّها عقلٌ يفكّر ويتفاعل مع الأفكار المترجَمة؛ وهي تعكس مشكلة

(16) جورج طرابيشي، هرطقات عن الديمقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية، ص 61.

(17) سيغموند فرويد، مستقبل وهم، ص 5.

(18) جورج طرابيشي، نقد نقد العقل العربي، نظرية العقل، ط1، (بيروت: دار الساقي، 1996)، ص 21.

(19) Tarabichi, p94.

طرابيشي في وعيه الترجمي، حيث أقرّ بأنه ((كان لديَّ مشكلة [الكلام لطرابيشي]: لقد كنتُ أبحث عن أب، وأحبّ أن أحرق الآباء. لم أضع خلال حياتي الثقة المطلقة في شخصية الأب لأنّي كنتُ أراها تسقط بعد فترة وجيزة. لقد كنتُ بحاجة إلى فهم نفسي، لقد بدأتُ بقراءة فرويد (..)؛ خطأ استمرّ لمدة خمسة عشر عامًا تقريبًا! لقد قرأتُ كلّ ما تُرجم لفرويد إلى الفرنسية وترجمتُ إلى العربية ثلاثين مؤلفًا لفرويد، لكن الأهمّ، هو أن هذا جعلني أغيّر مساري: مسارُ مفكّر إيديولوجيا))[20]، فتغيير الآباء عبر الترجمة هو تغييرٌ لأوضاع العقل في خطاب طرابيشي، فالأب (المعرفي) هو دالٌّ إبستمولوجي إلى منظور عقلاني جديد أي إلى (براديغم) للتفكير والتغيير الثوري الذي يرافقه.

**ب-** الأب الجماعي: عندما يصطدم العقلُ في مساره التقدّمي بحاجزٍ صلب فإنه يتراجع إلى الخلف محاولًا الاحتماء بالماضي وتعويض خسائر الاصطدام معنويًا ورمزيًا بما يملكه من تراث أي بما يحوزه من رصيد تاريخي منتهٍ في الزمن ولكن هذه الحماية سرعان ما تتحوّل إلى أزمة، ((ولا غرو أن تكون أزمة العقل العربي، المفتوحة منذ الهزيمة الحزيرانية، قد أخذت شكل عودة للمكبوت التراثي))[21]، وهنا تُعبّر الترجمة عن فتح الذات التراثية المصدومة على (ميكانزمات) عقلانية تساعد على العلاج من حالة (العصاب الجماعي) المتولّد من الصدمة كما تساعد على إعادة إنتاج معقولات حضارية جديدة عبر ((نقدٍ لخطاب تقليدي عربي يريد لنفسه أن يكون خطابًا ثقافيًا، لكنه في الواقع حقًا خطاب عصابي يبحث، في تجديد التراث، عن أبٍ للحماية «عن حام»))[22]، وهو خطابٌ تسلكُ فيه الجماعة سلوك الفرد في الحالة المَرَضية العصابية، إذ ((إن الرضّات الكبرى في تاريخ الجماعات والشعوب –ومنها على سبيل المثال رضّة حزيران/ يونيو 1967– من شأنها أن تولّد سلاسل متناظرة من ردود الأفعال المتطابقة أو الموحّدة بحيث تبدو الجماعة وكأنها تسلك سلوك الفرد الواحد، وبحيث يمكن اتخاذها موضوعًا لعلوم الذاتية البشرية، ومنها التحليل النفسي))[23]، وانعكسَ هذا السلوك العصابي على لغة خطاب الفكر العربي الذي تعني عودته إلى التراث بأعين مغلقة انهيارًا للعقل العربي من الداخل وتراجعه عن القيم العلمية لصالح تضخّم غير معقول للهوية تختفي فيه ملامحُ النقد والتفكير الثوري، بحيث ((إن خطاب الهوية الثقافية التراثية، الخطاب المهيمن اليوم، يبدو كذلك كخطاب يتراجع نحو أبٍ أُعطيت له صفة الأب المثالي))[24]، وهو الأب الذي يمارس ضغطه على العقل العربي بوصفه الصوت الوحيد الذي يجب أن يُسمع وكل صوت آخر ممكن، من خلال الترجمة بوصفها قناة لأصوات العقل الممكنة، هو صوت غريب يمثّل تهديدًا لما اكتسبته سلطة الأب في تاريخها القمعي من هيمنة ونفوذ.

(20) Tarabichi, p95.

(21) جورج طرابيشي، نقد نقد العقل العربي: نظرية العقل، ص 22.

(22) Tarabichi, p96.

(23) جورج طرابيشي، المثقفون العرب والتراث، التحليل النفسي لعصاب جماعي، ط1، (لندن: رياض الريس للكتب والنشر، 1991)، ص9.

(24) Tarabichi, p96.

لقد حدّد طرابيشي لحظة ولادة الأب المثالي في التراث العربي في لحظة الانقطاع عن الترجمة بما تمثّله من دافعٍ إصلاحي تنويري للعقل، إذ ((لو لمْ تواْد حركة الترجمة، ولو ظلّت الحضارة العربية الإسلامية في طورها المتأخر منفتحة على الآخر انفتاحها عليه في طورها المتقدّم، لما كانت كارثة الانحطاط قد وقعت (..) فيما لو وُجد من ينتبه لملاحظة ابن خلدون عن نهضة العلوم العقلية في عصره في العدوة الشمالية من المتوسط، ويدشن بالتالي حركة ترجمة عن اللاتينية مشابهة لتلك التي دشّنها أمويو القرن الثاني وعباسيو القرن الثالث عن الفارسية واليونانية))[25]، لأنه إذا كان دور الترجمة هو نقل معاني لغة إلى لغة أخرى فإن العقل لا يتكوّن إلا داخل اللغة التي تُعَدّ الترجمةُ توسيعًا لنطاقها، وهذا يظهر في العدد الكبير من المؤلفات التي ترجمها طرابيشي وهو ما يعني المرحلة الأولى من مشروعه التنويري في استئناف عصر النهضة الذي يقابله طرح الجابري في ضرورة البدء بعصر تدوين جديد، حيث يوضّح طرابيشي أنه ((تمسّ الحاجة اليوم إلى استئناف جديد لعصر النهضة، لا إلى عصر تدوين جديد كما يفترض الجابري: فليس هناك شيء جاهز اليوم ليتمّ تدوينه، كما لم يكن ثمّة شيء جاهز للتدوين في منتصف القرن الثاني للهجرة))[26]، فالترجمة بديل من التدوين لأنها تنقل ما يعكس التقدم في العقل المعاصر وما يوافق قانون العقل ذاته أمّا التدوين فيعني التأخر عن الحضارة المتسارعة بالإضافة إلى نفاذ مخزون التدوين ذاته.

تمتاز ترجماتُ طرابيشي الكثيرة بثلاث خصائص تجعلُ منها قوّةً موجِّهة للعقل العربي، وهي:

**أ-** الراهنية: لقد ترجم طرابيشي أكثر مؤلفات الفلاسفة وعلماء النفس تأثيرًا في القرن العشرين (ماركس، فرويد، سارتر)، ما يعني ربطه للتفكير بالعقل القريب (الفكر الغربي) بوصفه حصيلةً لتقدّم العقل الإنساني في التاريخ الذي يتضمّن في داخله على تجاوز التراث مجاوزةً نقدية أي على إعادة تجديد الخطاب العقلاني بتجدّد الأدوات المعرفية (مناهج البحث ونظريات التفكير والتحوّل السيكولوجي)؛ فقد أخذت الترجمةُ عند طرابيشي منحًى تصاعديًا في راهنية الطرح في تجاوز الأيديولوجيا إلى الرؤية العلمية الأقرب إلى فهم وتحليل وعلاج الأزمة العقلانية للوعي العربي بالذات والتاريخ، من خلال ربطها بأفكار عصرها، ((فالحضارة الغربية قد باتت، بحكم أسبقيتها إلى الحداثة، تتحكّم بالزمان الثقافي للحضارات الأخرى. وخلا الخروج من التاريخ أو السقوط في الهمجية، فإنه لم يعدْ للمتخلفين في هذا العالم من مستقبل آخر غير حاضر المتقدمين))[27]، فالترجمة إذن هي جزء من الاندماج بالزمان الثقافي للحضارة والوعي بها هو وعي تاريخي بالزمن، فما نفهمه من الترجمة هو حاضرٌ فعلي متبلور في لغة الآخر.

**ب-** القصدية: لم يترجم طرابيشي من أجل الترجمة بل كان يختار المؤلفات التي يظن أنها تساعد على

(25) جورج طرابيشي، هرطقات عن الديمقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية، ص 58.

(26) جورج طرابيشي، نقد نقد العقل العربي، نظرية العقل، ص 22.

(27) جورج طرابيشي، هرطقات عن الديمقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية، ص 60.

الفهم وتدفع إلى التفكير في مشكلات العالم العربي، فقد تركّزت ترجماته حول فرويد والتحليل النفسي لأنه أدرك أن العقل العربي معطّل بسبب عوامل نفسية أو ما سمّاه بالعصاب الجماعي المتولّد من هزائمَ ترسّبتْ في اللاوعي الجمعي، فكان كمَن يصف العلاج المناسب للمرض المشخَّص بكونه عقدة، فقد رأى ((أن العقدة التي ينتظم من حولها (العصاب الجماعي العربي) هي عقدة التثبيت على الماضي. وعلى اعتبار أن هذه العقدة من طبيعة نكوصية، فقد كان لا بد لنا من تحديد اللحظة التاريخية التي أتاحت المناسبة لاشتغال آلية النكوص أي الارتداد إلى الوراء، وتلك كانت رضّة الهزيمة الحزيرانية التي كان لها مفعول مُمرض على الشخصية العربية))[28]، وبهذا فإن الهدف من ترجمته لمؤلفات فرويد هو تجميع الأدوات المعرفية والعلمية لقراءة الشخصية العربية وتشخيص عقدتها، إضافة إلى إشاعة التحليل النفسي في الثقافة العربية بوصفه بديلًا من التفسيرات والتحليلات التي تربط أزمة النهضة العربية بمعطيات غير علمية.

إن المقصد من الترجمة وترجمة مؤلفات فرويد والتحليل النفسي بالخصوص هو التركيز على البُعد النفسي لمشروع العلاج والتعافي من العقدة التي تركّبت في البنية اللاشعورية للشخصية العربية بعد الهزيمة الحزيرانية، ولذلك باشر طرابيشي بترجمة فرويد ولو عبر لغة وسيطة هي الفرنسية لأنه شعر بالحاجة والإلحاح على هذا المقصد العلاجي، حيث و((في حالة فرويد خاصة والتحليل النفسي إجمالًا كان الخيار ذا حدّين لا ثالث لهما: إما أن تبقى الثقافة العربية في حالٍ من القطيعة مع ذلك الفتح العلمي الكبير الذي مثّلته الفرويدية، وإما أن تنهل بدورها من معين هذا الفتح ولو عن طريق لغة وسيطة، مع كل ما يترتب على الترجمة عن ترجمة من مخاطر الابتعاد عن صرف النص الأصلي، إن لم يكن عن روحه))[29]، فترجمة فرويد إذن هي بالنسبة إلى طرابيشي ضرورة عقلانية لإصلاح النفس في الشخصية العربية، فالنفسُ مركز انطلاق العمليات العقلية من إدراك ووعي، كما أن المعقولات لا تستقرّ في نفسٍ مَرَضية وضعيفة ومعقّدة، ولذلك ((فمهما يكن من قسوة إحباطات الحاضر ومن قوة التثبيت الرضّي على الماضي والدفع باتجاه النكوص، فإن في الدينامية النفسية قوى دافعة أيضًا باتجاه المقاومة والمعافاة والتقدّم))[30]، وكان يمكن لطرابيشي أن يكتفي بقراءة فرويد وتطبيق نظرياته على الكتابات العربية، لكنه فضّل أن تكون الترجمة ناقلًا للتحليل النفسي كثقافة مجتمع أكثر من كونه علمًا جاهزًا للتطبيق الشخصي.

**ج-** العقلانية: تعكس حالة الترجمة لدى طرابيشي الفرق بين المترجم-المفكّر والمترجم-المهني، أي بين مَن يتّخذ الترجمة مجالًا للإبداع والنقد والتنوير العقلاني ومن يتّخذ الترجمة حرفة غير موجّهة إلى هدف محدّد ولا مرتبطة بتفكير مخصوص، وبهذا المعنى نفهم لماذا ركّز طرابيشي على فعل الترجمة حول حقل معرفي مخصوص هو علم النفس والتحليل النفسي بالخصوص، لأنه أدرك أن وصول مؤلفات فرويد والتحليل النفسي إلى العالم العربي في لغته يعني تغيير طبيعة الفهم المرتبط بالمشكلات النفسية، وأنه يجب أن نعدّ الأفكار

(28) جورج طرابيشي، المثقفون العرب والتراث، ص 10.

(29) سيغموند فرويد، محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي، ص 7-8.

(30) جورج طرابيشي، المثقفون العرب والتراث، ص 12.

الشائعة في الكتابة العربية والشارع العربي ناتجة عن وعي زائف وعن إرادة مستلبة داخل اللاوعي الذي يزداد تعقّدًا كلما حاولنا تجاهل (الميكانزمات) النفسية التي تحرّكه وأبدلنا بها منظومة سلطوية تتلبّس بالدين والأيديولوجيا والسياسة والهوية والتراث، وهو ما يعني في النهاية استلابًا للعقل.

إن عقلانية الترجمة تعني بعبارة غادمير Gadamer أن ((الترجمة هي إضاءة إضافية Uberhel-lung))[31]، أي إن الترجمة تقود إلى إضاءة الجوانب المعتمة ممّا لا يمكن ملامسته من النص الأصلي، ولهذا أمكننا الحديث عن أنوار طرابيشي (Lumières, Aufklärung) من خلال الترجمات التي قام بها، إذ إن العالم العربي حسبه بحاجة إلى عصر تنوير لا عصر تدوين، فالترجمة إنما تعكس (تطعيم) العقل (Greffage de la raison) بنسبية عقلٍ آخر ليعرف حدوده، ويُراجع بنياته، ويعيد التفكير في ما ظنّ أنه مكتمَل ومنجَز ومطلق، ((فالعقل ليس له (طابع ثابت ومطلق) وأيًّا ما تكن أوهام المنتمين إليه في حقبة تاريخية ما، فإن (عقل عصرٍ ما ليس هو قط العقل المحض) (..) وإنما عندما تتراكم في الأفق التاريخي مؤشرات الحاجة إلى (تنسيب) هذا المطلق يكون العقل قد دخل في مرحلة أزمة مفتوحة))[32]، فالحاجة إلى الترجمة هي الحاجة إلى تنسيب المطلق المتعدّد في الثقافة العربية المعاصرة، فاكتشاف اللاوعي في الكتابة الفلسفية والأدبية العربية يعني اكتشاف زيف الإطلاقية التي أصبغتها هذه الكتابات على السلطات الأبوية ومنحتها درجة القداسة لتُخفي وراءها الآلام والهزائم والأمراض النفسية.

إن الترجمة في مشروع طرابيشي الفكري أنموذج للتنوير العقلاني لأنها ليست مرتبطة عنده بحَرفية النصوص أو هاجس البحث عن المعنى الأصلي، وإنما هي مرتبطة بثقافة جديدة لها مفعول عقلاني في المجتمع العربي، أي في المساعدة على فهم البنيات الرُسوبية في العقل العربي التي تجعله غير قادر على التغيير الإيجابي، على الرغم من الإمكانات الفكرية التي يتوفر عليها التي يعجز عن استخدامها، إذ ((إن مهمة المترجم لا تبدأ بالكلمة ثم الجملة ثم النص فالمجموع الثقافي ولكنها وفي الاتجاه المقلوب تبدأ من المجموع الثقافي إلى الكلمة))[33]، فالغرض من ترجمة طرابيشي لمؤلفات فرويد مثلًا لم يكن نقلَ نصوصه إلى العربية فقط، وإنما نقل ثقافة تَعتبرُ اللاوعي جزءًا من كينونة العقل ومحرّكًا لبعض منتجاته من أفعال وسلوكات وأفكار. ولذلك رأى طرابيشي أنه ((كان على فرويد تجاوز القواعد النحوية من أجل ترجمة اللاوعي، وربما فعلتُ الشيء نفسه في ترجماتي))[34]، وعليه يتجلّى حدّان لترجمة طرابيشي مرتبطان بآلية الترجمة نفسها من حيث اللغة وهما: تجاوز القواعد النحوية والتمرّد عليها والاعتماد على لغة وسيطة (الفرنسية)، حيث ((الترجمة عن الترجمة خيانة مضاعفة، ذلك أن المسافة التي تفصل لا محالة النص المترجَم عن النص الأصلي تتضاعف في حال

(31) Gadamer, Vérité et méthode, p408.

(32) جورج طرابيشي، نقد نقد العقل العربي، نظرية العقل، ص 20.

(33) Paul Ricœur, Sur la traduction , p56.

(34) Tarabichi, p99.

المرور بلغة وسيطة بين اللغة الأصلية للنص وبين اللغة المترجَم إليها))[35]، وحدٌّ آخر مرتبط باختيار التوجيه الداخلي لما يراه المترجِمُ ضروريًا من الناحية العقلانية للقارئ في اللغة المترجَم إليها، وبالنسبة إلى طرابيشي كان هذا الاختيار مسألة (اللاوعي المأزوم بالأب) وقرارًا منهجيًّا اتّخذه على الرغم من مخاطر الإضرار بالترجمة وأمانتها، لأنه ((مهما أردنا أن نكون أمناء في الترجمة إلا أننا نكون في مواجهة اتّخاذ قرارات دقيقة، فعندما نريد التأكيد في ترجمتنا على شيء مخصوص من النص الأصلي نعتقد أنه مهمّ فإن ذلك لا يتمّ إلا بإغفال أشياء أخرى أو التعتيم عليها كليًّا))[36]، وهذا يعني أن الترجمة تضع حدودًا لما يريده المترجم أن يكون معقولًا ومؤثّرًا في القارئ، فالنص الأصلي لا يسمح بالاختيار الموضوعي خارج بنياته الدلالية ونسقه المفهومي، وإنما يحدث كلّ تفكير للمترجم داخل خيارات النص الأصلي، وإنْ اختلفت اللغة وأداؤها التداولي.

## لوغوس الترجمة وتجربة النقد

إن النقد هو فضيلة العقل الأولى، ومنذ (كانت) على الأقل لم نعُدْ نفهم الوضوح في العقل وقدرته على الحُكم، بوصفه مَلَكة إبستمولوجية لكلّ تصوّر موضوعي، إلاّ من خلال سابقةٍ نقدية للأسس النظرية التي تقوم عليها تصوّرات الذات لحظة الوعي بالأشياء والظواهر والموضوعات، وفي الفكر الغربي المعاصر أصبح تراث (الكوجيتو) الديكارتي نفسه، أي القاعدة الأنطولوجية للذات، محلَّ مراجعة نقدية شاملة وجذرية وهو ما تشهد عليه الانقلابات الفلسفية لنيتشه، وهوسرل، وهيدغر؛ وهذا يعني أن كلّ مقاومة لفعل النقد نفسه تُعد عرَضًا مرَضيًا للعقل أو ما سمّاه طرابيشي بالعصاب[37]* ((فمن خلال إعادة البناء النقدي للعقل المكوَّن في تراثنا الماضي، ومن خلال إعادة إنتاج العقل المكوَّن في تراث الغرب الحاضر قد يتسنى لعقل عربي مكوِّن –وهو الشرط في أيّ نهوض ذاتي– أن يرى النور بدون قطيعة لا مع ثقافة الذات، ولا مع حضارة العصر التي ما زال بعضنا– أو أكثرنا– يقابلها بالرفض العصابي بحجة أنها «حضارة الآخر»))[38]، وبما أن مبدأ النقد قد تمّ إضعافه في ثقافة الذات العربية تحت ضغط الأيديولوجيات الانغلاقية وهيمنة السلطات الأبوية، فإن السبيل المتبقّي لإذكاء روح النقد في العقل العربي هو الاستلهام من حضارة الآخر عبر الترجمة، وهنا يمارس طرابيشي نقدًا مزدوجًا من خلال الترجمة: النقد في الترجمة والنقد بالترجمة:

أمّا النقد في الترجمة، فقد عالج طرابيشي مشكلة ترجمة أعمال فرويد إلى العربية انطلاقًا من الترجمات الفرنسية محاولًا تجاوز العوائق اللغوية للوصول إلى روح النص الفرويدي، وتُعد هذه المشكلة إحدى نتائج

(35) سيغموند فرويد، محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي، ص 7.

(36) Hans-Georges Gadamer, Vérité et méthode, p407.

(37) *يبدو أن طرابيشي اختار لفظ (العصاب) لترجمة الكلمة الفرنسية (Névrose) للدلالة على المرض النفسي، ولكنه يحيل أيضًا إلى العصبية والتعصّب وهي تدلّ على انتشار المرض النفسي وانعكاسه في السياقات الاجتماعية والدينية.

(38) جورج طرابيشي، نقد نقد العقل العربي، نظرية العقل، ص 23.

الترجمة من لغة وسيطة، إذ للغة الألمانية روحها الداخلية، وطريقتها في إنتاج المعاني وخصوصيتها الدلالية، وقد عبّر عن ذلك بقوله ((أنا مستاء من الترجمات الجديدة لفرويد، فهذه الترجمات شبه علمية، إنها أكثر معرفيةً، فهي لم تتحدّث باللغة التي تحدّثتْ بها الترجمات السابقة، ففرويد ليس مجرّد رجل تقني في التحليل النفسي، إنه رجل ثقافة كبير، لا يمكننا ترجمته نصيًّا، لا يمكننا ترجمة روح اللغة الألمانية إلى اللغة الفرنسية الديكارتية))[39]، غير أن الحاجة إلى إعادة الاقتراب من الطابع الأصلي للغة فرويد، بما يمكن أن نسمّيه نقدًا ذاتيًا للترجمة، دفعتْ طرابيشي إلى إعادة النظر في ترجماته من حيث الصياغة والدلالة؛ ففي ترجمته مؤلفَ فرويد (محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي) (2014) يُبيّن أنه ((قد صدَرتْ في الآونة الأخيرة ترجماتٌ جديدة رجعنا إليها لتعديل ترجمتنا السابقة ولنُدخل عليها كلّ التعديلات –الجذرية أحيانًا– التي ارتأينا أنها ضرورية لتقريب النص العربي من النص الألماني، ونخصّ بالذكر الترجمة الجماعية الجديدة (..) والتي تتميّز بالحرص على حرف النص الأصلي بقدر ما كانت الترجمة الأولى تحرص على أداء المعنى))[40]، وهنا لاحظَ طرابيشي أن المسافة بين النص الألماني والترجمة العربية يمكنها أن تتقلّص إذا اعتمد على ترجمة وسيطة تعود إلى حَرْفية النص الأصلي بدلًا من تتبّع آثار المعنى وتوجّهاته الدلالية، لأنها تعود إلى اجتهاد القارئ المتخصّص، وليست بالضرورة من مهمات المترجم.

لقد تنبّه طرابيشي إلى أن تحوّلًا معرفيًا قد طرأ على عملية ترجمة أعمال فرويد في الثقافة الفرنسية من بدايتها مع سيرج يانكيليفتش (Serge Jankélévitch) إلى ترجمة فريق العمل الفرنسي أندريه بورغينوين (André Bourguignon) وغيره، وتمثَّل هذا التحوّل في الانتقال من إضفاء الطابع الأيديولوجي على لغة الترجمة أو ما سمّاه طرابيشي بالفَرْنسَة إلى الصرامة المنهجية في المحافظة على حرف النص الأصلي لمؤلفات فرويد لإعطائها طابعًا علميًا موضوعيًا، ((فالسابقون من مترجمي فرويد كانوا أحرص على الفرْنسة بينما يدلّل اللاحقون منهم على حرص أكبر على الترجمة، وبالتالي على الأمانة لحرف النص الأصلي، ولو على حساب الأناقة والسلاسة في التعبير))[41]، وعلى هذا الأساس يكون طرابيشي قد مارس نقدًا على (أيديولوجيا الترجمة) لأنه إذا كانت الترجمة عن لغة وسيطة تُعد خيانة مضاعفة للغة النص الأصلي بحسب طرابيشي، فإن الترجمة الأيديولوجية هي خيانة للروح العلمية للنص الأصلي.

عندما انتقَد طرابيشي ترجمته لمؤلفات فرويد من الفرنسية فلأنه أدرك الفارق التعبيري الذي يميّز اللغات في ما بينها، وقدرة بعض اللغات على استيعاب القوّة الدلالية التي هي جزء من تركيبة العقل الذي يفكّر بها ثم يحوّلها إلى صورة (مفهومات) أي إلى وحدات لغوية ذات أداء معرفي وعلمي على غرار مفهومات التحليل النفسي، ولهذا لاحظ طرابيشي أنه ((يوجد شيءٌ من الحميمية في لغة فرويد، كتلك التي نجدها في الشعر، على

(39) Tarabichi, p98.

(40) سيغموند فرويد، محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي، ص 14.

(41) المرجع نفسه، ص 14.

الرغم من أني [طرابيشي] لم أقرأه إلا في الترجمات الفرنسية، كان يجب أن تكون الترجمة من الألمانية إلى العربية، مثلما قمتُ به بالفرنسية، للنجاح في ترجمته إلى العربية، لأن اللغة العربية أكثر شعرية من اللغة الفرنسية ولأن المفهوم مبنيٌّ في اللغة الألمانية))[42]، فمهمة الترجمة بهذه الصورة هي نقل الأداء المفهومي للغة أجنبية إلى اللغة الأم، ولا سيما عندما يتعلق الأمر بتأسيسات معرفية من مثل التحليل النفسي، وهذا بالضبط ما حاول طرابيشي القيام به عندما أعاد النظر في ترجماته القديمة لفرويد بناءً على نقد داخلي للغة التي كتب بها ترجماته تحت تأثير تيارات فكرية وأيديولوجية على مراحل مختلفة من حياته المعرفية.

أمّا النقد بالترجمة، فيتعلّق الأمر باستثمار الترجمة نفسها في ممارسة النقد أي بالانتقال من الترجمة بوصفها محض تعادلٍ للمعاني بين لغتين مختلفتين إلى إنجاز نصوص جديدة تحمل القيم النقدية، حيث النقد هنا هو انعكاسٌ لحركة العقل في مرآة الترجمة، لأن ((ترجمة نصٍ ما، ليست مجرّد استعادة للسياق النفسي الأصلي لصياغته، ولكنها إعادة إنتاج للنص(Nachbildung) توجّهها عملية فهم مَقولهِ، حتى وإنْ نجح المترجم في جعل حياة المؤلف وعواطفه كأنها صادرة عنه))[43]، فإنْ كان طرابيشي قد ارتبط نفسيًا بترجمة فرويد وأراد أن يقدّمه للقارئ العربي في لغة تحمل خصوصيته الثقافية وحمَلَ على عاتقه ترجمة أكثر نصوصه حساسيةً في المجتمع العربي، إلا أن ذلك لم يمنعه من تتبّع تطوّر الأفكار الفرويدية بالملاحظات النقدية التي تعني التزامه بقاعدة (تنسيب العقل) ولذلك قال ((إن التزامنا بدليل عملٍ فرويديٍّ النسب لا يمنعنا من البقاء منفتحين على التأويل اليونغي، أو على التأويل الذي طوّره جيرار ماندلً، على سبيل المثال، وغيره من رواد المدرسة ما بعد الفرويدية، فالتحليل النفسي لم يكن في يوم من الأيام مذهبًا وهو ما ألّف جسمًا نظريًا مكتمل النمو؛ فهو قيد تخلّق مستمرّ))[44]، فعندما يوظّف ترجماته للتحليل النفسي الفرويدي في قراءة مؤلفات المثقفين العرب أو تحليل الرواية العربية فإنه يرى ((أن التحليل النفسي عندنا نقطة انطلاق لا نقطة وصول))[45]، أي إنه ليس الهدف من ترجمة التحليل النفسي الوقوف عند بنيته وتكوينه بل الهدف هو تفعيله في قراءة نقدية لمنظومة ثقافية عربية تلتقي عند نقطة عصابية تُغطّي على ضوء العقل وتحجبه.

يذهب طرابيشي بعيدًا في نقده للتحليل النفسي بوصفه جهازًا علميًا لاستخراج اللاوعي وتفكيك الآليات التي يشتغل بها، فقد أقرّ بأنه ((بعد خمسة عشر عامًا من الترجمة، فهمتُ أنه لا يمكن تطبيق التحليل النفسي لأنه لا يوجد منهج جاهز تمامًا))[46]، وبهذا المعنى تكون الترجمة قد كشفت عن حدود تطبيق التحليل النفسي، وذلك باللغة التي تعكس المفهومات الإجرائية والتصورات المعرفية التي تؤسّسه، وكذا التجارب

(42) Tarabichi, p98.

(43) Hans-Georges Gadamer, Vérité et méthode, p407.

(44) جورج طرابيشي، المثقفون العرب والتراث، ص 9.

(45) جورج طرابيشي، عقدة أوديب في الرواية العربية، ط2، (بيروت: دار الطليعة،1987)، ص 6.

(46) Tarabichi, p98.

العلاجية والمحاولات التي قام بها فرويد التي تكشف على أن التحليل النفسي ليس علمًا منضبطًا بقواعد محددة، ((ولأن المنهج التحليلي النفسي ليس مجموعة جاهزة من القواعد، فإن الكلام عن (تطبيقه) يبدو في غير محلّه. فأيّ (تطبيق) لمنهج التحليل النفسي هو إعادة اختراع، وبالتالي تطوير له وإخصاب (..) إذ إن التحليل النفسي، مهما ادّعى لنفسه من قوام العلم الموضوعي، هو أيضًا فن ذاتي))[47]، أي إنه سيرورة من التفسيرات والتأويلات التي تطرأ على كيفية التحليل وطُرق النظر إلى الظاهرة النفسية، وبهذا المعنى يُعد النقد جزءًا من فاعلية تطوير التحليل النفسي وما يرتبط به من موضوعات متعلقة بكينونة الكائن نفسه والأبعاد التي تتخذها كينونته تحت وطأة الإكراهات النفسية المتعدّدة المنابع.

تُمثّل الترجمة تحدّيًا أمام العقل النقدي، لأن المترجم يتعاطف لاشعوريًا مع مضمون الترجمة بسبب ملازمته للنصوص الأصلية وتفاعله المستمرّ مع لغتها، حتى تتحوّل تلك النصوص إلى قالب نظري ونفسي ثابت لتفكير المترجم، وهكذا تُخضعه الترجمة لسلطة النص، وتُعدّل من لغته التصوّرية الخاصة حتى لا يستطيع التفكير إلّا بها، إلا أن طرابيشي يترك هامشًا للمناورة النقدية على النص الفرويدي، فعندما يترجم لفرويد نصًا يقول فيه ((الحق أنه كما لا يمكن الاستغناء عن الإكراه الذي يفرض مشقات الحضارة، كذلك لا يمكن الاستغناء عن سيطرة أقليةٍ ما على الجموع، وهذا لأن الجموع خاملة وعادمة الذكاء، لا تحب نكران الغريزة، ولا سبيل إلى إقناعها بحجج ضرورة هذا النكران وحتميته، ولا يتحمل الأفراد الذين تتألف منهم بعضهم بعضًا إلا ليطلق كل واحد منهم العنان لشططه ومجونه))[48]، حيث يهاجم فرويد هنا الجُموع ويُعلي من شأن الفرد والأقلية، وهنا يتدخّل طرابيشي في هامش المتن ناقدًا هذا التوجّه بأنه ((بديهي أن المرء غير ملزم بأن يتبنى كل ما يقرأه أو يترجمه، وأن الموقف النقدي ضروري هنا كل الضرورة في مواجهة نظرة فرويد النخبوية هذه))[49]، فالترجمة لا تعني إذًا الخضوع لمواقف صاحب النص الأصلي، ولا متابعته في ما يقول، لأن كلّ نص يدخل مجال القارئ أو المترجم يصبح عُرضة لوجهة نظر أخرى ولثقافة مغايرة، ومن ثمّ يمكنه أن يتحوّل عبر سلسلة الفهم والتفسير والتأويل إلى نص مختلف من حيث درجة الموضوعية.

يمكن أن نلاحظ الروح النقدية في ترجمة طرابيشي لأعمال فرويد خاصة تبعًا للمعرفة العقلانية السائدة في مراحل مختلفة من مسار ترجماته الطويل، ففي السبعينيات من القرن الماضي عندما كانت الثقافة العلمية سائدة في الأوساط الفلسفية والعلوم الاجتماعية والإنسانية عمومًا، وكان العلم التجريبي نموذجًا للتفكير العقلاني، ترجمَ طرابيشي سنة 1978 عنوان كتاب فرويد «l'interprétation du rêve» أو بالألمانية «Traumdeutung» بـ (علم الأحلام)[50] على هامش ترجمته لكتاب فرويد (الهذيان والأحلام في الفن)

(47) جورج طرابيشي، المثقفون العرب والتراث، ص 10.

(48) سيغموند فرويد، مستقبل وهم، ص 10.

(49) المرجع نفسه، ص 10.

(50) سيغموند فرويد، الهذيان والأحلام في الفن، جورج طرابيشي (مترجمًا)، ط1، (بيروت: دار الطليعة، 1978)، ص 5.

مع أنه ينقل عنه قوله ((وقد واتت مؤلف (علم الأحلام) الجرأة لينحاز إلى صف العصور القديمة والخرافة الشعبية ولو على كره من أهل العلم الوضعي))[51]، لكن طرابيشي يُعيد ترجمة هذا العنوان، على هامش ترجمته لكتاب فرويد (الطوطم والطابو) (2015)، بـ((تأويل الحلم، الكتاب المشهور الذي كان فرويد أصدره عام 1900، وقد اشتهر بالعربية بعنوان تفسير الأحلام مع أنه في الأصل الألماني بالمفرد))[52]، أي إنه عندما عاد إلى بنية المفهوم في اللغة الألمانية(Traumdeutung) أدرك روح ترجمته إلى (تأويل الحلم) حيث ينتمي هذا المفهوم إلى ثقافة تزخر بفلسفة التأويل منذ شلايرماخر إلى الحركة الرومنتيكية وصولًا إلى الهرمينوطيقا المعاصرة (هيدغر، غادمير) وانعكاساتها على الخطاب الفلسفي والمعرفي والأدبي المعاصر، فكلمة (تأويل) تحمل شحنة شعرية فنية بينما كلمة (علم) تحيل إلى منظومة من القواعد والمناهج التي تهدف إلى الموضوعية واليقين.

إن هذا المثال في ترجمة طرابيشي لفرويد يعني أن فعل الترجمة يتبع حركة العقل ووضعه في صيرورة التاريخ التي هي ذات طبيعة نقدية عندما يتعلق الأمر بعلاقته باللغة التي تعبّر عنه، فالترجمة إذن هي لوغوس من الدرجة الثانية في مقابل لوغوس النص الأصلي؛ ولذلك فإن التغييرات التي تطرأ على ترجمةٍ ما، كما هو الحال في مثال طرابيشي، تعكس تغييرات في البنية العقلانية لمواقف فكرية ووجهات نظر معرفية من قضايا ومشكلات تمّ نقدها أو إعادة تركيبها بما يتناسب مع القواعد النظرية التي يتمّ تجديدها في خطابٍ معرفي ما.

لقد حاول طرابيشي من خلال الترجمة أن يقدّم للعقل العربي آلية عقلانية أساسية هي قوة النقد السائدة في الثقافة الغربية المعاصرة ولدى واحدٍ من رواد الشك هو فرويد، غير أن الاستعانة بلغة وسيطة (الفرنسية) تعني حدودًا إضافية على الخطاب المقصود من وراء الترجمة، أي حدودًا على طابع العقلانية التي تكون مسحوبة إلى الوراء من خلال المضمون الأيديولوجي المدمَج في لغة الترجمة الفرنسية، مع الأخذ بعين الاعتبار الصراع الثقافي والأيديولوجي بين فرنسا وألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، وعليه فإن الدرس النقدي للترجمة يشير إلى ضرورة إعادة القراءة في ضوء معطيات العقل المتجدّدة إذ ((إن العقل المكوَّن لا يتمّ تجاوزه بالقفز فوقه بل فقط بالتعاطي المعرفي النقدي معه))[53]، فعندما يمارس قارئ النصوص المترجمة فعلًا نقديًا عليها، فإنه بذلك يتوسّع في العقلانية التي يتشارك فيها مع الآخر، لأن مبادئ العقل كونية، حيث تلعب الترجمة دور الوسيط الذي يربط أطراف العقل ببعضها مثلما حدث في الغرب عندما تُرجمت أعمال ابن رشد إلى اللاتينية مثلًا.

(51) المرجع نفسه، ص 5.

(52) سيغموند فرويد، الطوطم والطابو، علم نفس الجماهير وتحليل الأنا، تأملات راهنة حول الحرب والموت، المؤلفات شبه الكاملة، 7، جورج طرابيشي (مترجمًا)، ط1، (دبي، الإمارات العربية المتحدة: دار مدارك للنشر، 2015)، ص 10.

(53) لجورج طرابيشي، نقد نقد العقل العربي: نظرية العقل، ص 21.

## خاتمة

تُمثّل الترجمة مناسبةً مُثلى لملامسة جوانب عقلانية غير مكشوفة في اللغة الواحدة، لأننا في اللغة نكون تحت تأثير الأشياء التي تُحيل إليها، وهي إحالةٌ محدودة بعالم اللغة، فنكون منخرطين لاشعوريًا في منظومة الأشياء التي لا يمكن تجاوزها في اللغة الأم، إذ ((لا يسعنا الفصل بسهولة بين (الشيء) واللسان، حتى في الحالات القصوى، حيث علينا الترجمة من لغة إلى أخرى))[54]، ولذلك فإنه مع الترجمة نكتشف أبعادًا أخرى للأشياء ذاتها، كأن نكتشف أن ما ندعوه تراثًا لم يولد وهو تراث، بل كان ثورة على تراث آخر أي على بُعدٍ آخر لشيء نظن أنه ثابت غير متحرك، وبهذا المعنى تكون الترجمة جزءًا من الوعي التاريخي بالماضي التراثي وبالحاضر، وليست كثرة ترجمات طرابيشي إذن مسألة إنتاج مادي فقط بل هي مسألة تكثيفٍ لحضور الوعي الغربي بأزمات العقل وعوائقه الإبستمولوجية والأيديولوجية.

لقد كان طرابيشي على وعي تامّ بأن الترجمة هي جزء من المقاومات العقلانية للانغلاق الأيديولوجي وللدوغمائية المتولّدة من هيمنة الرأي الواحد في الفكر والثقافة، فقد لاحظ ((أن مبدأ الترجمة بالذات قد فقَد مشروعيته النظرية منذ سادت الإيديولوجيا السلفية المتشدّدة والانغلاقية في القرون المتأخرة التي درج الكثيرون على تسميتها «عصر الانحطاط»))[55]، لأن مهمّة الترجمة هي تفكيك البناء الجاهز المبني على أسس نرجسية واعتقادات منغلقة على نفسها تدّعي امتلاك الحقيقة الوحيدة وتحوّل هذا الادّعاء إلى خطاب يشتغل في حقول معرفية متعدّدة، ويردّد الصوت نفسه في سياقات مختلفة وهو ما يعني موت العقل وظلمة العالم الذي يُمثّله.

ليست العقلانية نموذجًا جاهزًا يمكن اتباع خطواته وفق مسار محدّد المعالم، وإنما هي مجموعة القيم التنويرية التي تُعد الترجمةُ واحدةً من الأشكال التعبيرية عنها، لأن الترجمة تفتح في العقل الحوار بين ثقافتين مختلفتين، ولكنه حوار صامت دليلهُ الكتابة والنصوص التي تُطوّر أفكار الآخر في اللغة الأم، غير أن الترجمة تضع حدودًا للعقل لأنها تُخضعه لأفكار وآراء النص الأصلي تحت ضغط الأمانة في الترجمة والالتزام بالمعنى الأصلي، وهي في حالة طرابيشي تعمل عملها عندما يترجم كثيرًا لفرويد والتحليل النفسي حتى رسّخ ذلك لديه أنه ما مِن مشكلة في الثقافة العربية فكرًا أو أدبًا إلا وتقف خلفها عقدة نفسية أو يهيمن عليها أبٌ ما، وقد أشار إلى الحدود التي تضعها الترجمة على الفكر عندما أنكر وجود فلسفة عربية واعتبر أن ذلك ((حقيقة واقعة، وهي أنه لا وجود لفلسفة عربية حديثة أو معاصرة، وإن وُجدت فلسفة كهذه فهي فلسفة مترجَمة، أو متولّدة بواسطة الترجمة))[56]، وقياسًا على هذا الحكم يمكن عدّ فكر طرابيشي التحليلي ناتجًا عن الترجمة وخاضعًا لها، ولكن ذلك ليس سلبيًا إنْ وُضع في رؤية مشروع طرابيشي الكلّي الذي يضع الترجمة في مبتدأ أولوياته التأسيسية بدلًا من التدوين.

(54) Hans-Georges Gadamer, Vérité et méthode, p409.

(55) جورج طرابيشي، هرطقات عن الديمقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية، ص 57، 58.

(56) المرجع نفسه، ص 59.

إن الترجمة تعني المشاركة الرمزية في الفكر العالمي، فهي تُحوّل القراءة الفردية إلى مشاركة جماعية للآراء والأفكار، وعبر هذا المعنى تمرّ ترجمات طرابيشي التي اتّخذها أداةً للتنوير العقلاني العربي، لأن فكرة الآخر الغريبة تصبح مألوفة عند دخولها لغة القارئ العربي، فقد كانت أفكار فرويد غريبة عن العالم العربي بل من النصوص المحرّمة والمحظورة وعدّ التحليل النفسي عملًا استفزازيًا لثقافة سائدة حينها تُعطي تفسيراتٍ ميتافيزيقية لمُخرجات عوامل نفسية من مثل الكبت والقمع والنرجسية، لكن تلك الأفكار أصبحت بعد انتشار ترجمات أعمال فرويد في العالم العربي آلية من الآليات المهمة لتفسير واقع نفسي للشخصية العربية في كتاباتها كما في سلوكاتها.

لقد قدّم المفكر طرابيشي تجربة مهمّة في حياة الفكر العربي المعاصر، تجربة الترجمة والتفكير فيها ومن خلالها التي دلّت على انفتاح العقل العربي على آخَرٍ مشاركٍ في الإنسانية ومسهم في بناء العقلانية، فقد انتبه طرابيشي منذ بداية مشروعه الفكري والنقدي إلى أنه لا يمكن الحديث عن بعض الأفكار الثورية في المجتمع العربي مثل أفكار التحليل النفسي وضد-الأبوية والتابوهات وغيرها، ما لم تسبقها ثقافة عالمة بهذه الأفكار، وهي الثقافة التي تنشرها الترجمة بوصفها عملًا تحضيريًا لاستقبال أفكار عقلانية، ولكنها أفكار ذات طابع ثوري ونقدي، فالترجمة آلةٌ تهيّئ الوعي للنظر من دون أحكام مسبقة أو خلفيات أيديولوجية إلى الفكر الغربي بوصفه فضاءً مختلفًا لعيش تجربة العقل بما يساعد على فهم الذات وتعيين نقاط هشاشتها، وبما يسهم في ترميم الفجوات التي تشكّلت بفعل صناعة لغوية للوهم في خطاب عربي ظلّ يحارب دونكيشوتيًا التاريخَ بالتراث، لأن مفهوم الزمن لديه مفهوم مضطرب بسبب التناقض بين العيش في زمن حاضر والتفكير بزمن ماضٍ؛ فالترجمة إذن هي قبضٌ على الزمن بالكتابة، زمن الحداثة التي لا تعني شيئًا آخر سوى ربط الإنسان بعجلة التاريخ، أي بتزمين (temporalisation) تجربته في الكتابة، وجعْلِ نصوصه ضمن كليّانية الخطابات المعاصرة.

لقد نظر طرابيشي إلى الترجمة بوصفها أولوية عاجلة للعقل العربي في رهان اكتساب الأدوات الحداثية للعقل، ووضَع تلك الأولوية ضمن قاعدة تاريخانية ترى أن ((سبْق الغرب إلى اجتراح مأثرة الحداثة قد جعل كل ما يمكن أن يفكر به الملتحقون بركب الحداثة مفكَّرًا به مسبقًا))[57]، وليس هذا حكمًا ناتجًا عن شعور بالإحباط أو الانبهار ومحبّة التقليد ولكنه ناتج عن وعي تاريخي بزمن الحداثة وهذا الوعي هو شرط لا يمكن تجاوزه أو استبداله في سيرورة العقلانية التي هي جزء من صيرورة التاريخ الذي يرتفع فوق الأعراق واللغات والهويات، بل إن الرهان المعرفي الذي خلّفه إرث طرابيشي هو في القدرة على جعْل الترجمة عمليةً راهنة، أي أن تكون الترجمة إلى العربية مُلازمة لحركة وزمن التأليف في الغرب والعالم، لأن تخلّفَ الترجمة عن المنتوج الفكري والثقافي العالمي يعني تخلّف العقل العربي عن المسار التراكمي للمعرفة، ومن ثمّ يفقد صلاحيته في التفكير.

(57) جورج طرابيشي، هرطقات عن الديمقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية، ص 60.

يمكن للترجمة إذن أن تساعد في مواجهة الهيمنة الأيديولوجية على العقل العربي التي تقوم بتشويه ممكناته الحضارية وأن تُقلّص دائرة الوهم التي تتّسع كلّما انتشرت أفكارٌ تظن أنه يمكن وضع الهوية والدين واللغة خارج حركة التاريخ، وأنّ الاستناد إلى التراث يَعصمُ من كلّ نقد؛ فإذا كانت الحداثة الغربية، وعلى الرغم ممّا وصلت إليه من درجة في العقلانية، قد عانت الأعراض الجانبية لتطوّر العقل الحداثي والممثَّلة في نزعة مركزية الأنا (égocentrisme) ونزعة المركزية الإثنية الأوروبية (eurocentrisme) والجنوح إلى العدمية (nihilisme) وغيرها، فكيف يمكن للعقل العربي في وضعه المنهار الراهن أن يقفز فوق عوائقه المعرفية والنفسية من دون أن يقف عند كشفها وتحليلها ونقدها، وهذا ما لا يكون في النهاية إلا قفزًا في الظلام.

## قائمة المصادر والمراجع

**1 – مصادر طرابيشي**

- طرابيشي. جورج، المثقفون العرب والتراث، التحليل النفسي لعصاب جماعي، ط1، (لندن: رياض الريس للكتب والنشر، 1991).
- ـــــــــــــــــ، عقدة أوديب في الرواية العربية، ط2، (بيروت: دار الطليعة، 1987).
- ـــــــــــــــــ، نقد نقد العقل العربي، نظرية العقل، ط1، (بيروت: دار الساقي، 1996).
- ـــــــــــــــــ، هرطقات عن الديمقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية»، ط1، (بيروت: دار الساقي، 2006).

**2 – حواراته**

- Georges Tarabichi, Rencontre avec un traducteur en Arabe, Georges Tarabichi, avec: Zoueïn Josette, Thierry de Rochegonde, in: Revue (Che Vuoi?), (Paris: L'Harmattan, 2004), N° 21.

**3 – ترجمات طرابيشي**

- فرويد. سيغموند، الطوطم والطابو، علم نفس الجماهير وتحليل الأنا، تأملات راهنة حول الحرب والموت، المؤلفات شبه الكاملة، جورج طرابيشي (مترجمًا)، ط1، (دبي، الإمارات العربية المتحدة: دار مدارك للنشر، 2015).
- ـــــــــــــــــ، الهذيان والأحلام في الفن، جورج طرابيشي (مترجمًا)، ط1، (بيروت: دار الطليعة، 1978).
- ـــــــــــــــــ، محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي، جورج طرابيشي (مترجمًا)، ط1، (دبي، الإمارات العربية المتحدة: دار مدارك للنشر، 2014).

• ـــــــــــــــــــ، مستقبل وهم، ترجمة: جورج طرابيشي (مترجمًا)، ط 4، (بيروت: دار الطليعة، 1998).

4 – مراجع باللغة الفرنسية

•Berman. Antoine, L'épreuve de l'étranger, culture et traduction dans l'Allemagne romantique, (Paris: Gallimard, 1984).

•Gadamer. Hans-Georges, L'art de comprendre, écrits1: herméneutique et tradition philosophique, trad. Marianna Simon, (Paris: Aubier-Montaigne, 1982).

•——————, Vérité et méthode: Les grandes lignes d›une philosophie herméneutique, trad. Pierre Fruchon, Jean Grandin et Gilbert Merlio, (Paris: Seuil, 1996).

• Ricœur. Paul, Sur la traduction, (Paris: Bayard, 2004).

•Wittgenstein. Ludwig, Tractatus Logico-Philosophiques, trad. Gilles-Gaston Granger, (Paris: Gallimard, 1993).